السلطة السياسية في الفكر الغزالي بين المثالية الاخلاقية وموجبات الشرع

أ.د. نزار محمد قادر أ.د. نهلة شهاب احمد

جامعة الموصل / كلية التربية / قسم التاريخ

(قدم للنشر في ٢٠١٩/١٠/٣ ، قبل للنشر في ٢٠١٩/١١/٦)

ملخص البحث:

خلاصة القول ان مقدمات الغزالي ونتائجه استهدفت الدفاع عن الخلافة العباسية والخليفة المستظهر بالله ، ما جعله يسبغ عليها القدسية ، ويجرد مناوئيها من أية مشروعية ، فضلاً عن مخالفته في بعض الجوانب لمن سبقه من الفقهاء الذين تصدوا للنظرية السياسية وشرعوا للإمامة.

لقد وضع الغزالي مسلماته التي قرن فيها بين المثل الخلقية وموجبات الشرع فيما يتعلق بالإمامة ، ليصل الى نتيجة واحدة ، وهي مشروعية الخلافة العباسية عامة ، وخلافة المستظهر بالله خاصة ، ما يجعله احد دعاتها والذائدين عنها ، وللوصول الى هذا الغرض أفاض في نقد وتفنيد طروحات كل الاتجاهات التي خالفتها في الرأي ، ولعل هذا الموقف المتشدد ، كان واحداً من عوامل الضغط التي طرأت على مجرى حياته فيما بعد .

Political power in Ghazali thought between moral idealism and sharia law obligations

Abstract:

The right of the imamate and its legitimacy represented as a concern for the Caliphs of the sons of Abbas since the establishment of their state in an attempt to confront the opposing intellectual trends . this is what motivated the Caliphate to guide the jurists loyal to it to respond to the proposals contrary to it in an attempt to undermine caliphate on the one hand and to establish the legitimacy of the Abbasid Caliphate , of these Mohammed bin Mohammed al- Ghazali , who instructed by Abbasid Caliphate on the other hand , especially after the declaration of the fatimid Caliphate , of these Mohammed bin Mohammed al- Ghazali who instructed by Abbasid Caliph Almstathhir Billah (487 AH- 512 AH / 1904 – 1118 A.D) to accomplish this task . therefore , the study dealt with the attitude of al- Ghazali from the political powers in his era , especially the Seljuk authority , and the Abbasid caliphate , as his visions were focused on alerting the sultans and their princes to subject their practices to the obligations of sharia law and he aimed to defend the Abbasid Caliphate and its sanctity and to deprive its opponents of any legitimacy .

مثلت احقية الامامة مشروعيتها هاجسا لازم خلفاء بني العباس منذ قيام دواتهم في محاولة لمواجهة الاتجاهات الفكرية . وهذا ماحفز الاخلافة لتوجيه الفقهاء الموالين لها للقيام بالرد على الطروحات المخالفة لها في محاولة لتقويضها من جهة وتثبيت شرعية الخلافة العباسية ، لاسيما بعد اعلان الخلافة الفاطمية ، من هؤلاء محمد بن محمد الغزالي ، الذي اوعز له الخليفة المستظهر بالله العباسي (٤٨٧هـ ـــــ ٥١٢م / ١٩٠٤ ــ ١١١٨ م) هذه المهمة. لذا تناولت الدراسة موقف الغزالي من القوى السياسية في عهده لاسيما السلطة السلجوقية والخلافة العباسية اذ تمحورت رؤاه في تنبيه السلاطين وامرائهم الى وجوب اخضاع ممارساتهم لموجبات الشرع ، واستهدف الدفاع عن الخلافة العباسية وقدسيتها ، وتجريد مناوئيها من اية مشروعية . مثلت أحقية الإمامة ومشروعيتها هاجساً لازم خلفاء بني العباس منذ تبلور طموحهم السياسي وتصديهم للإمامة وقد استندوا في دعوتهم السرية على وصية ابو هشام عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالإمامة من بعده لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس على اعتبار انهم أصحاب الحق الشرعي في وراثة الرسول (ﷺ)[1] . وعلى اثر الظروف السياسية بعد وصولهم الى السلطة ، بدأ العباسيون يتنصلون عن هذه الوصية حتى تبرأوا منها . ففي أول خطبة لأبي العباس حين بويع له بالخلافة ، ما يشير الى أحقية العباسيين بالخلافة من منطلق قرابتهم للرسول (ﷺ) اذ جاء فيها . " الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه والزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم الرسول (ﷺ) وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته " [2] . وخطب داؤد بن علي بعد ابي العباس قائلاً " الحمد لله ، ... الذي أهلك عدونا ، واصار الينا ميراثنا من نبينا محمد (ﷺ) . ايها

(١) احمد بن ابي يعقوب بن واضح اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، تقديم محمد صادق بحر العلوم (النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٤) ٣/٤٠ ؛ محمد بن سعد الكاتب : الطبقات الكبرى (بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٥) ٥/٣٢٨ ؛ احمد بن يحيى بن جابر البلاذري : انساب الأشراف ، تحقيق عبد العزيز الدوري (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٧٨) ٣/٨٣ ؛ محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦) ٧/٤٢١.

(٢) المصدر نفسه ، ٧/٤٢٥ ؛ مؤلف مجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٧١) ٣/٢٠٠ ؛ عز الدين حامد عبد الحميد بن هبة الله : شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد ابو الفضل (القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي) ، ٧/١٥٤ .

الناس ، الآن أقشعت حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم الى منزعه ورجع الحق الى نصابه في أهل بيت نبيكم " [٣] . وأكد الخليفة ابي جعفر المنصور في رده على رسائل محمد ذو النفس الزكية (رضي الله عنه) على أحقيتهم بالخلافة لقرابتهم من الرسول (صلى الله عليه وسلم) مؤكداً ان القرابة من الأب ليست هي كالقرابة من الأم ، وان العباس (رضي الله عنه) كان عمه ، والله سبحانه قد جعل العم أباً [٤] وهو أحق بميراثه[٥] . وهكذا روج أتباعهم روايات في إثبات الإمامة للعباس (رضي الله عنه) على أساس انه عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووارثه[٦] ، ولم يتوقفوا عند ذلك بل روجوا الأحاديث ونسبوها للرسول (صلى الله عليه وسلم) من ذلك ما نسب للرسول (صلى الله عليه وسلم) " العباس وصيي ووراثي " [٧] .

وساقوا الإمامة من العباس بن عبد المطلب الى ان انتهوا الى المنصور[٨] ، وأوعز الخليفة المهدي لأنصاره برد الإمامة للعباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) وقال لهم " قولوا ان الإمامة كانت للعباس عم النبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه كان أولى الناس به وأقربهم اليه ثم من بعده لعبد الله بن العباس ثم لعلي بن عبد الله ثم لمحمد بن علي ثم لإبراهيم بن محمد ، ثم لأبي العباس ثم لأبي جعفر ثم للمهدي " [٩] . وبذلك افترق العباسيون عن العلويين بعد ان بقي ادعائهم بأن حقهم بالخلافة جاء عن طريق العلويين في محاولة لغلق السبل أمام العلويين

---

(٣) ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٨٥) ٣٣٢/١ ؛ اليعقوبي : تاريخ ، ٨٧/٣–٨٨ ؛ الطبري : تاريخ ، ٤٢٦/٧–٤٢٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٦٨/٧ .

(٥) محمد بن يزيد المبرد : الكامل في اللغة والأدب (القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، د.ت) ٣١٣/١– ٣١٤ ؛ علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم بن الأثير : الكامل في التاريخ (بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٥) ٥٣٦/٥–٥٤٢ .

(٦) علي بن الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت ، دار الأندلس ، ١٩٨٣) ٢٣٦/٣ ؛ علي بن احمد بن سعيد بن حزم : الفضل في الملل والأهواء والنحل (بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٥) ٩٠/٤ ؛ عبد القاهر بن طاهر البغدادي : أصول الدين (استانبول ، دار الملايين ، ١٩٧١) ، ٢٨١ .

(٧) يزيد بن محمد بن أياس الازدي : تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ٢٣٠ .

(٨) ابو الحسن علي بن إسماعيل الاشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تصحيح هامون ريتر (بفيسبادن ، فرانز شتاينر ، ١٩٦٣) ٤٦٢/١ .

(٩) مؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء (موسكو ، ١٩٦٧) ، ٤٩٦ ؛ الحسن بن موسى النوبختي : فرق الشيعة ، عني بتصحيحه ، هـ ، ريتر (استانبول ، مطبعة الدولة ، ١٩٣١) ٤٢–٤٣ .

للمطالبة بالخلافة . إلا ان هذه الدعاوى لم تستطع ان تلغي إيمان العلويين بحقهم في الخلافة ، وجسدوا ذلك على الصعيد العملي ، بكثير الثورات ضد النظام العباسي ، وتمكن بعض من أفراد الأسرة العلوية من تكوين كيانات سياسية مستقلة عن الخلافة في المغرب ، ومنطقة الديلم ، وفي اليمن ، وعلى الصعيد النظري تصدى أنصار العلويين لوضع نظرية في الإمامة ، وفي هذا يقول ابن النديم[١٠] "كان أول من تكلم في الإمامة علي بن إسماعيل بن ميثم الطيار ، وهو من الشيعة من أتباع الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه) وهذب المذهب والنظر ، وكان حاذقاً بصناعة الكلام ، حاضر الجواب " واستمر علماء الشيعة يناقشون هذا الموضوع في كتبهم باعتباره من الأمور العقائدية ، واصلاً من أصول الدين لذلك عد من مواضيع علم الكلام وليس الفقه[١١] . وهذا ما حفز الفقهاء الموالين للخلافة العباسية من الرد على هذه الطروحات في محاولة لإثبات شرعية الخلافة العباسية على اعتباراتها امتداد للخلافة الأولى ، فلم يخلو كتاب في الفقه او علم الكلام من موضوع الإمامة ، خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ممثلة في كتابات ابي إسحاق الاسفرائيني (ت٤١٨هـ/١٠٢٧م) والقاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ/١٠٢٤م) وابو الحسن المحاملي (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) ، والباقلاني (ت٤٠٣هـ/١١٠٢م) ، وابو منصور البغدادي (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) [١٢] . إلا ان الخلافة العباسية لم تستشعر خطر بقائها واستمرارها جدياً إلا بعد إعلان الخلافة الفاطمية في رقادة أواخر شهر ربيع الآخر سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م) [١٣] . وأعلن على انها نظام خلافي وتلقب ابو محمد بن عبيد الله بلقب الخليفة والإمام المهدي[١٤] .

---

(١٠) محمد بن إسحاق بن النديم : الفهرست ، تحقيق فلوجل (بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٦٤) ١٧٥ .

(١١) محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : الملك والنحل ، تحقيق رشيد الصفار (القاهرة ، دار إحياء التراث ، ١٩٧٥) ١٤٦/١ ؛ عارف ثامر : الإمامة في الإسلام (بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت) ٦٦ .

(١٢) محمد بن الطيب الباقلاني : التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ، تحقيق محمود محمد الخضري ، ومحمد عبد الهادي ابو ريدة (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٧) ١٦٤–١٨٨ ؛ عبد القاهر عبد الطاهر البغدادي : الفرق بين الفرق (بيروت ، دار الآفاق ، ١٩٧٣) ٢٦٥–٢٦٦ ؛ عبد الله بن اسعد بن علي اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان (الهند ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٧٠) ٢٩/٣ .

(١٣) علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير : الكامل في التاريخ (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٨) ١٣٣/٦ .

(١٤) النعمان بن محمد القاضي : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضي (بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٠) ٢٤٩–٢٥٠ .

اختلف الفاطميون عن القواد المحليين الذين كانوا يؤسسون الأسر الحاكمة في المشرق والمغرب ، إذ كانوا رؤساء فرقة دينية في الإسلام هي فرقة الشيعة الإسماعيلية[١٥] . ومن هذا المنطلق لم يعدو أنفسهم مجرد أمراء ذوي سلطة زمنية تهدف الى إنشاء أسرة حاكمة موضعية ، تدين او لا تدين بالولاء للخلافة العباسية ، بل أوضحوا جهازاً انهم الخلفاء الشرعيين على المسلمين قاطبة بعهد وتفويض من الله ، وان العباسيين قد اغتصبوا السلطة من أصحاب الحق الشرعي[١٦] . لذلك لم يكن قيام الخلافة الفاطمية حدثاً عادياً في مجرى تاريخ الأمة الإسلامية ، اذ لم يحدث لأية قوة مهما كان اتجاهها الفكري ان انتحلت الخلافة . ما ترتب عليه نشوب صراع متعدد الجوانب بين العباسيين والفاطميين من اجل السيادة على العالم الإسلامي[١٧] . استطاع الفاطميون ان يطوقوا الخلافة العباسية في بغداد بعد ان سيطروا على مصر (٣٥٨هـ/٩٦٨م) [١٨] ، والشام سنة (٣٥٩هـ/٣٦٩م) [١٩]، وخطب لهم في الحجاز سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) [٢٠] وأعلنت دعوتهم في صنعاء سنة (٣٧٩هـ/٩٨٩م) [٢١] ، وخطب لهم بالموصل سنة (٣٨٢هـ/٩٩٢م) [٢٢] ، وبلغت دعوتهم أبواب بغداد[٢٣] . إلا ان كفة الميزان قد تغيرت لصالح العباسيين خاصة بعد ظهور قوى الغزنويون والسلاجقة في مشرق الدولة وأعلنوا ولائهم للخلافة العباسية ووقفوا الى جانبها

(١٥) برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ، ترجمة خليل احمد حلو ، جاسم محمد الرجب (القاهرة ، دار الكتاب ، د.ت) ٩٧ ، ١١٢ .

(١٦) جي ، أي ، جون كروبناوم : الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ، ترجمة صدقي حمدي (بغداد ، مطبعة اسعد ، ١٩٦٦) ٢٢١ .

(١٧) هاملتون جب : صلاح الدين الأيوبي ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، حررها يوسف ايبش (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات ، ١٩٧٣) ٤٦ .

(١٨) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (الهند ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٩هـ) ٤٧/٧ .

(١٩) حمزة بن اسد بن علي بن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨) ١ .

(٢٠) محمد بن احمد بن عثمان الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام ، محقق عمر عبد السلام تدمري (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٨) ٢٥٤-٢٥٥ .

(٢١) احمد بن محمد بن خلكان : وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٨) ٣٧٤/٥ .

(٢٢) ابن الأثير : الكامل ، ١٥٧/٧ ، ١٨١ .

(٢٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق إبراهيم الزيبق (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦) ١٣١/١٥ .

في هذا الصراع[٢٤] . ما يهمنا في هذا المجال هو الوجه الآخر للصراع ، ألا وهو الجانب النظري ، اذ على الرغم من المصنفات الكثيرة التي افردت للإمامة مباحث خاصة ، دافعت فيها عن أحقية العباسين بالخلافة ومشروعية نظامهم واستمراره ، إلا ان الخلافة العباسية كانت تدرك ان الحاجة ماسة لمفهوم عقائدي يواجه الكم الهائل من الأفكار والطروحات لمختلف الاتجاهات على خارطة العالم الإسلامي ، لاسيما النظرية الإسماعيلية التي جاءت على درجة كبيرة من التنظيم والتعقيد معتمدة على تنظيم كامل وجهاز من الدعاة منبثين في كل صقع وناحية يبشرون بمذهبهم وأيامهم ويعرضون بالعباسين ويظهرون عيوبهم ، ويبشرون بقرب زوال ملكهم[٢٥] . لذلك حفز الخليفة العباسي الفقيه ابو الحسن الماوردي لتصنيف كتابه الأحكام السلطانية[٢٦] ، اذ شرع لدولة إسلامية تكون الخلافة هي المحور الذي تدور حوله ، من خلال مشروع سياسي محدد الأهداف واضح المعالم ، وتقويم خاص للواقع السياسي الذي عاصره ، وتمثل شخصي للتاريخ الإسلامي ، بهدف التشريع للحاضر ، وحلول ضمنية من اجل تغييره[٢٧] فجاء كتابه أشبه ما يكون بدستور عام يتناول الأسس التي تقوم عليها الدولة ، ودليل عمل ومنهجاً لما ينبغي ان تكون عليه الخلافة وذلك في هدى الشريعة الإسلامية ، وضرورات الأحوال المتطورة وكذلك فعل ابو يعلي الحنبلي ، كل حسب مذهبه[٢٨] . إلا ان هاجس التحدي الفاطمي ، والاتجاهات المخالفة للخلافة العباسية بقي مسيطراً على خلفائها . وبقيت الحاجة ماسة لأن يتصدى الفقهاء لهذه الاتجاهات ، للدفاع عن شرعية الخلافة العباسية وأحقية العباسين في قيادة العالم الإسلامي . ووجد الخليفة المستظهر بالله

(٢٤) ابن الجوزي : المنتظم ، ١٦٤/٨ ، ٢٠٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ٧٠/٨-٧١ .

(٢٥) ابن النديم : الفهرست ، ١٩٨ ؛ احمد بن علي المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق محمد حلمي احمد (القاهرة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٧١) ١٨١/٢ ؛ جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٧٠) ٢٨٧/٣ .

(٢٦) علي بن محمد بن حبيب الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية (بغداد ، دار الحرية ، ١٩٨٩) ١٢ .

(٢٧) سعيد بنسعيد : الفقه والسياسة ، دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي (بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٢) ٢٥٥-٢٦٠ .

(٢٨) محمد طه بدوي : بحث في النظام السياسي ، ضمن كتاب مناهج المستشرقين (الرياض ، ١٩٨٥) ١١٨/٢-١١٩ .

(٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م) في الغزالي ، خير من يتولى هذه المهمة ، وكان قد ذاع صيته في نظامية بغداد والتف حوله فقهائها . إذ أصبح حجة في الفقه والأصول والأخلاق . ولم يكن الغزالي بعيد عن مجريات الأمور السياسية في عصره ، على الرغم من انه لم يتقلد منصب سياسي ، ولكنه كان تلميذ إمام الحرمين الجويني (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) الذي كان من خاصة الوزير السلجوقي نظام الملك ، وكان مدركاً لنفوذه ودوره وتطلعاته ، فخصه بكتابين احدهما (العقيدة النظامية) (وغياث الأمم في التيات الظلم) [٢٩] وبعد وفاة الجويني ، وجد نظام الملك في تلميذه الغزالي ضالته ، فاختصه بعد ان خبر مواهبه واصطنعه ، مدركاً إمكانياته في تحقيق ما يصبوا اليه ، وقلده التدريس في نظامية بغداد ، التي كان من جملة أهدافها ، فضلاً عن نصرة المذهب الشافعي الاشعري ، تنظيم إدارة الدولة السلجوقية ، من خلال تهيئة كوادر من طلبة الفقه والعلوم الشرعية ، من يصلح للعمل في القضاء والإدارة ، لتحقيق سياسة الوزير التنظيمية[٣٠] .

أولا : التعريف بالغزالي

هو محمد بن محمد بن محمد ، يكنى بابي حامد ، ويلقب بحجة الإسلام والمسلمين ، وأمام أئمة الدين ، ويعرف بالغزالي نسبة الى صنعة والده الذي كان يغزل الصوف ويبيعه ، وقيل نسبة الى قرية ولد بها تسمى غزالة فنسب اليها ، ولد بطوس (مشهد حالياً) في عام ٤٥٠هـ/١٠٥٩م وتوفي ودفن فيها عام ٥٠٥هـ/١١١١م ، وله من العمر خمس وخمسين سنة[٣١] .

ثانياً : نشأته العلمية

نشأ في بيت علم ودين ، فقد كان والده مهتماً بالفقه والتصوف ، مواضباً على حضور مجالسهم العلمية ، وكانت تربطه ببعض علمائهم علاقات ود وصداقة ، وقد أولى اهتماماً كبيراً بتربية أبنائه مذ نعومة أظفارهم ، حتى انه قبل وفاته أوصى بتعليم ابنيه احمد ومحمد لواحد من علماء عصره ، واستودعه مالاً لينفقه على تعليمهم . وقام الرجل على تربيتهما ، حتى نفذ مالهما ، ووجد نفسه ان لا قدرة له على مواصلة الأنفاق عليهما ، وطلب

(٢٩) احمد مبارك البغدادي : الدولة الإسلامية بين الواقع التاريخي والتنظير الفقهي ، مجلة الباحث ، عدد (٥٨) (الأردن ، ١٩٣٣) ٦١-٦٤ .

(٣٠) صلاح الدين عبد اللطيف الناهي : الخوالد من آراء حجة الإسلام الغزالي (بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٧) ١٣٣ .

(٣١) ابن الجوزي : المنتظم ، ١٢٤/١٧ ؛ تقي الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (بيروت ، دار المعرفة ، د.ت) ١٠٢/٤ ؛ محمد بن محمد الواسطي الزبيدي : تاج العروس في جواهر القاموس ، شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) ، موقع الوراق ، ٨٣٧٥/١ .

منهما الالتحاق بمدرسة بقوله : " أعلما اني قد أنفقت عليكما ، وانا رجل من الفقر والتجريد ، بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما ان تلجأ الى مدرسة كأنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما " [٣٢] . والتحقا فعلاً بإحدى مدارس طوس ، اذ درسا الفقه والحديث على يد الإمام ابي حامد احمد بن محمد الراذكاني ، وبعد فترة انتقل الغزالي الى مدينة جرجان وفيها تتلمذ على يد ابي نصر الاسماعيلي ، ثم عاد الى طوس وبقي فيها مدة ، ثم قدم نيسابور مع مجموعة من طلبة الفقه فجد واجتهد ولزم أمام الحرمين الشريفين ضياء الدين الجويني حتى وفاته سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ووصفه من بين تلامذته بأنه (بحر مغدق) . ولمع في مدة قصيرة حتى أصبح من انظر أهل زمانه وأوحد أقرانه ، وكان ملجأ للطلبة يستفيدون منه ويدّرس لهم ويرشدهم[٣٣] حتى وصف بأنه " لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاءاً وطبعاً " [٣٤] وتلقى علوم التصوف على يد الإمام ابي الفضل بن محمد بن علي الفارمدي الطوسي (ت٤٧٧هـ/١٠٨٤م) واخذ علم الحديث عن الإمام ابن سهل المروزي ، ومحمد بن يحيى الذّوزني ، اما الفلسفة فلم يدرسها على يد احد من الفلاسفة ، انما اعتمد على مطالعته لكتب هذا العلم ، حتى آلّم به . وقد أشار الى ذلك في كتابه المنقذ من الضلال[٣٥] .

بدأت شخصية الغزالي تتألف عالماً ناشئاً يبشر بموسوعية ومستقبل زاهر ، فقد كان شغوفاً بالعلم محبّاً له حريصاً عليه ، برع في علوم كثيرة بالفقه ، والخلاف والجدل ، وأصول الدين ، والمنطق والحكمة والفلسفة ، وجسّد ذلك في كتاباته المتنوعة التي ذاعت واشتهرت ، اذ يقول الغزالي عن نفسه : " ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الان – وقد افاق السن على الخمسين – اقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لأخوض الجبّان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم

(٣٢) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ١٠٢/٤ .

(٣٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ٣٥/٨ ؛ ابو حمد عبد الله بن اسعد بن علي اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) ، موقع الوراق ، ٤٨١/١ ؛ صلاح الدين بن ايبك الصفدي : الوافي بالوفيات (استانبول ، ١٩٣١) ٢٧٤/١ .

(٣٤) اليافعي: مرآة الزمان، ٤٨١/١؛ عبد الحليم عويس، وليد عبد عبد الماجد كساب : الفكر السياسي بين ابن حزم والغزالي (القاهرة ، دار الحكمة ، ٢٠١٠) ٩٠.

(٣٥) الغزالي : المنقذ من الظلال ضمن مجموعة رسائل الغزالي (القاهرة ، مكتبة التوفيقية ، د.ت) ٥٧٨ ، ٥٧٩ .

على كل مشكلة ، واتقحم على كل ورطة ، وأتصفح عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا أحب ان اطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد ان اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا واحرص على العثور على سر صفوته " [٣٦] . ذاع اسم الغزالي وانتشر صيته بعد توجهه الى المخيم السلطاني (المعسكر) فأقبل عليه الوزير نظام الملك ، وسرّ بوجوده ، وناظر كبار العلماء بحضرته ، فأبتهر به ، وولاّه التدريس في المدرسة النظامية ببغداد ، فقدمها عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م وسنه نحو الثلاثين عاماً وبقي بها أربع سنوات ، واقبل على دروسه الأئمة الكبار كابن عقيل وابي الخطاب من رؤوس الحنابلة وتعجبوا من فصاحته ، وسعة علمه ، وأقدموا على نقل كلامه في مصنفاتهم . وعظمت مكانته ببغداد حتى طغت على مكانة الأمراء والأكابر[٣٧] . تعرض الإمام الغزالي الى منعطف جديد في حياته اذ دخل في صراع فكري قاسي بين الشك واليقين الى ان استقر واهتدى الى طريق الزهد واقبل على العبادة وترك الحشمة والمكانة الاجتماعية التي نالها ، واخذ يرتزق من النسخ ، وترك التدريس في المدرسة النظامية ، وناب عنه أخوه بالتدريس فيها ، ورحل لأداء فريضة الحج ،ثم توجه الى الشام فأقام بدمشق مدة ، ويقال انه عزم منها لركوب البحر للاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب والأندلس لما بلغه منه من محبة أهل العلم والإقبال عليهم ، فبلغه وفاته ، وعدّل عن الذهاب ولازم مسجد دمشق الأموي معتصماً متأملاً أكثر وقته في مأذنته الشمالية مغلقاً بابها عليه ، متمتعاً بخلوة او صلته الى ما لم يصل اليه سواه من المعارف ، وخلال هذه المدة صنف كتابه " إحياء علوم الدين " وكتاب " الأربعين " و " القسطاس " وغير ذلك ، ثم غادر دمشق الى بيت المقدس ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية وصحب الفقيه نصر بن إبراهيم ، وهناك هاج شوقه لأهله فعاد الى موطنه ، اذ بقي عشر سنين ، ثم طلب للتدريس في نظامية نيسابور فأجاب

(٣٦) ابن الجوزي : المنتظم ، ١٢٤/١٧ ، ١٢٥ ؛ عماد الدين ابو الفداء إسماعيل ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق علي شيري (بيروت ، دار إحياء التراث ، د.ت) ٢١٤/١٢ ؛ الذهبي ؛ تاريخ الإسلام ، ٣٥/٨ .

(٣٧) اليافعي : مرآة الزمان ، ٤٨٢/١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ٢١٤/١٢ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ٣٥/٨٤ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٧٤/١٢ .

محتسباً فيه الخير والإفادة ونشر العلم ، ومكث مدة على ذلك ، ثم عاد الى بلده طوس فأقام بها وابتنى رباطاً ومدرسة لطلاب العلم واتخذ داراً حسنة ، وغرس فيها بستاناً أنيقاً واقبل على تلاوة القرآن وحفظ الحديث الصحاح والتدريس ، واستمر على هذه الحال حتى وفاته[٣٨] .

ثالثاً : آثاره العلمية

برع الغزالي في العديد من العلوم ، وخلف وراءه علماً غزيراً بثه في مصنفاته المشهورة منها البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة وإحياء علوم الدين ، الذي يعد من اجل الكتب وأعظمها ، حتى قيل فيه : " لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء، لأغنى عمّا ذهب " ، وغاية النور في دراسة الدور ، والمستصفى ، والمنحول الذي صنفه في حياة أستاذه الجويني وعرضه عليه ، فقال " دفنتني وانا حيّ ، فهلاّ صبرت حتى أموت ؟ لأن كتابك غطى على كتابي " [٣٩] ، ومن كتبه الأخرى اللباب ، وبداية الهداية ، ومنهاج العابدين ، وكيمياء السعادة ، وتحصين المآخذ ، والرد على الباطنية ، ومعيار العلم ، ومشكاة الأنوار ، ومقاصد الفلاسفة ، والمنقذ من الضلال ، وغيره[٤٠] .

رابعاً : عصره

عاش الغزالي في عصر تفكك وتجزئة العالم الإسلامي الى دويلات كثيرة لكل منها حاكمها ومذهبها المستقل ، لكنه كان مؤمناً بشرعية الخلافة العباسية ومن يمثلها من السلاجقة ، لذلك لم يدخر جهداً وانبرى في الدفاع عنها ، ودخل في معارك فكرية ضد خصومها[٤١] . نال الغزالي مكانة كبيرة عند سلاطين السلاجقة الذين اولوا اهتماماً كبيراً بالعلم والعلماء ، وشجعوا مختلف العلوم العقلية والنقلية ، وخصوصاً عندما تقلد نظام الملك الوزارة في عهد السلطان الب ارسلان ، حيث كان هذا الوزير عالماً مثقفاً ، يحب

(٣٨) ابن الملقي : العقد المذهب في طبقات حملة المذهب ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٥٧٩ ، ورقة ١٥٦ . (نقلاً عن : عبد الرحمن بدوي : مؤلفات الغزالي (بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٧) ١٩-٢٠ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١/٢٧٥-٢٧٦ .

(٣٩) ابن الملقي : العقد المذهب ، ورقة ٥٦ أ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١/٢٧٦ .

(٤٠) عبد الحليم عويس ، وليد عبد الماجد كساب : الفكر السياسي بين ابن حزم وابي حامد الغزالي ، ص ٩٩ .

(٤١) ابي الحسن محمد بن احمد بن جبير: رحلة ابن جبير (بيروت ، دار مكتبة أهلال ، ١٩٨١) ص ١٨٣ .

نشر العلوم والمعرفة على أوسع نطاق ، وتمكن من دفع عجلة التقدم العلمي الى الإمام ، إذ بنى أكثر من اثنتي عشرة مدرسة علمية سميت بالنظامية تيمناً باسمه ، نشرها على الرقعة الجغرافية لبلاد المسلمين في البصرة ونيسابور وبلخ وهراة وأصفهان ومرو وغيرها من المدن ، وقام بتهيئة خيرة علماء العصر لتدريس الطلاب فيها[٤٢] وكان أعظمها وأشهرها المدرسة النظامية في بغداد ، التي فتحت للتدريس سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م ، وكان يدرس فيها العلوم الدينية واللغوية ، وكذلك العلوم العقلية الطب والرياضيات والفلك والنجوم والصيدلة[٤٣] وقد عمد الوزير نظام الملك الى وضع أوقاف كثيرة وكبيرة لهذه المدارس يجرون بها على الفقهاء والمدرسين والطلبة ، ليضمن لها الاستمرارية والدوام[٤٤] وخصصت لكل مدرسة من هذه المدارس خزانة كتب ألحقت بها ، فقد ذكر بان عدد مجلدات خزانة كتب المدرسة النظامية في بغداد بلغت ستة الألف مجلداً[٤٥] ولم تقتصر خزائن الكتب على المدارس ، بل اتخذت المساجد مستودعات للكتب فكانت خزائنها غنية بالكتب النادرة الثمينة لاسيما الكتب الدينية التي كان الناس يهبونها لها ويوقونها على القرّاء ، وكانت هناك خزائن كتب أخرى شبه عمودية أنشأها الأغنياء والوجهاء ، وكانت تضم كتباً في مواضيع متنوعة كالمنطق والفلسفة والفلك وسواها ، وكثيراً ما كانت هذه المكتبات منتديات للعلماء يتداولون فيها الأبحاث العلمية والمناظرات الأدبية[٤٦] .وعدَّ الغزالي من اشهر أساتذتها ، اذ كانت تشد اليه الرحلة لسماعه واخذ العلم عنه ، كما نشطت حركة الترجمة والتأليف في هذا العصر ، وتقدمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور الكثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب وقد ساعدت دور الكتب وحوانيت الوراقين على رفع مستوى الثقافة وإيجاد طبقة من المثقفين على درجة كبيرة من النضج والتفوق العلمي[٤٧] وكثرت المؤلفات باللغتين العربية والفارسية في العلوم المختلفة مما جعل الدارسين يلمون

(٤٢) محمد حسين الزبيدي : ملامح النهضة العلمية في العراق (بغداد ،نشر اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٨٠) ص ٣٧ .

(٤٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ١٨٣ .

(٤٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٦٦/١٣ .

(٤٥) عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) ص ١٩٤ ، ١٩٥ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧) ٢٧/٤ .

(٤٦) حسن : تاريخ الإسلام ، ٢٧/٤ .

(٤٧) حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، ص ١٩٢ .

بأطراف من مختلف العلوم والفنون في عصرهم ويحرصون على إظهار ذلك في كتاباتهم وراجت هذه الظاهرة عند العلماء والكتاب والشعراء . فأصبحت دليلاً على مبلغ ما وصلت اليه الحياة الثقافية والفكرية من تقدم عند المسلمين عامة في أثناء الحكم السلجوقي[٤٨] . كما أدى ظهور كثير من الفرق الى إيجاد نهضة علمية لأن هذه الفرق اتخذت من العلم وسيله لتحقيق أهدافها السياسية والدينية ، فكان للجدل الذي قام بين هذه الفرق اثر بعيد في النهضة العلمية تجلى في الآثار التي خلفها علماء المعتزلة ، على الرغم من ما أحدثته هذه الفرق من تفكك العالم الإسلامي ، وإضعاف الخلافة العباسية[٤٩] .

خامساً : الغزالي والسلطنة

واذا كان الغزالي من رجالات الدولة السلجوقية في هذه المدة ، إلا انه لم يكن منقاداً لتوجهاتهم السياسية ولا مجاملاً على حساب ما يؤمن به ، كما فعل أستاذه الجويني[٥٠] . لقد آمن الغزالي بأن السياسة التي تقوم على الشرع الإسلامي كفيلة بحل مشكلات المجتمع والدولة ، فالسلطة في نظره وظيفة اجتماعية ، ينبغي الوفاء بها ، فهي ليست ولاية قهر على سبيل الشهوة والهوى ، وخير ضمانة الى عدم انحدارها الى هذا المستوى ، فقد أملى على حكام عصره أتباع الشورى والاستماع لمن بلغو مرتبة الاجتهاد ، ما يرتب عليهم ولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٥١] . لذلك اتسمت رؤاه السياسية بالتكامل في السياسة المدنية والأخلاق المثالية ، والتزام التقدم وطلب الكمال ، وأصبحت منهاجاً تقوم عليه فلسفته الخلقية السياسية ، او السياسية الخلقية وما اهتدى اليه من أسرار التشريع[٥٢] . وبما ان السلطة ذات قدر وخطر ، لذلك وجه تحذرياته الشديدة لحكام عصره من مغبة الظلم والتعسف ، فبعث اليهم برسائل بناشدهم فيها بالعدل والإنصاف والرحمة والشفقة مع الرعية وإزالة ما عليهم من الظلم والعسف ، وإنذارهم الشديد بان

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

(٤٩) المرجع نفسه والصفحة .

(٥٠) عبد الملك الجويني : غياث الأمم في الثبات الظلم ، تحقيق مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم (مصر ، طبعة دار الدعوة ، ١٩٧٩) ص ٢١٦-٢١٧ .

(٥١) ابو حامد محمد بن محمد الغزالي : كتاب مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء ، تحقيق محمد جاسم الحديثي (بغداد ، دار الحرية ، ١٩٨٨) ٧٥ .

(٥٢) الناهي : الخوالد ، ١٣٤ .

الله سبحانه يعذب الظالمين في الدنيا والعقبى[٥٣] . وان الغاية يجب ان تكون موصولة برضا الله وعدم الغفلة على حسابه وعذابه ، ففي رسالة للسلطان سنجر ، يذكره فيها بالموت ، وبحال من سبقه من السلاطين (طغرلبك ، ملكشاه ، والب ارسلان) وحذره من ان ينام ليلته شبعان وفي رعيته جائع ، وان يلبس برغبته ثوباً وفي رعيته عريان[٥٤] . كما بعث برسائل أخرى الى الحكام ، بحذرهم من أعوان السوء ، ومن الظلم الذي فشا ، ويدعوهم الى الكف عن ارتكاب المحظورات ، والتحريض على العدل والإنصاف وتخفيف المؤونة عن الناس ، ففي رسالة للسلطان سنجر جاء فيها " أن أهل طوس في أزمة شديدة مشردون ومصابون في الظلم والقصمة ، فماذا يكون اذا خففت من ثقل أطواق الذهب التي في أعناق ماشيتك " [٥٥] . وأنكر الغزالي على الحكام الغلو في الألقاب ، مثل الأمير ، والحسام ، والنظام ، فهي من التكلف[٥٦] . وهكذا فالولاية واجب خلقي رفيع على من بيده الأمر ان يراعي المصالح العامة ، ومبادئ الخلق الرفيع . ويعد الغزالي السلطة نعمة يخولها الله جلت قدرته لمن يشاء ، وما على المخول سوى الشكر . ففي كتابه التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، الذي ألفه للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي يخاطبه " اعلم يا سلطان العالم ملك الشرق والغرب ، ان لله عليك نعماً ظاهرة ، و الاء متكاثرة ، يجب عليك شكرها ، ويتعين عليك إذاعتها ونشرها ، ومن لم يشكر نعم الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، فقد عرّض تلك النعمة للزوال " [٥٧] . وهكذا اجتمعت في الرؤى السياسية للغزالي مبادئ مراعاة المصالح العامة للمحكومين والالتزام بالخلق الرفيع وفق ما دعا اليه الشرع الإسلامي وهذه الرؤى تقوم أساساً على العدل الذي هو علاج حاسم لكل المعضلات والعدل ضمن مفهوم الغزالي يتشعب الى أصناف منها:

١- معرفة قدر الولاية وخطرها ، فأن الولاية نعمة من الله عز وجل من قام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية له ، ومن قصر عن النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله لقول (ﷺ) " عدل السلطان يوماً واحداً أحب الى الله من عبادة سبعين سنة " ودعم ذلك بكثير من الأحاديث

(٥٣) الغزالي : الوسيط في المذاهب ، دراسة وتحقيق علي محي الدين علي (قطر ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، د.ت) ١٧٠ .

(٥٤) الغزالي : الوسيط ، ١٧١ .

(٥٥) الغزالي : التبر المسبوك في نصيحة الملوك (د.م ، مكتبة الكليات الأهلية ، ١٩٦٨) ١٣-١٧ .

(٥٦) الغزالي : الوسيط ، ١٧٧ .

(٥٧) الغزالي : التبر ، ٥-٦ .

النبوية وأقوال الصحابة والسوابق التاريخية في تقرير صفة العدل[٥٨] .

٢- قرابة العلماء ليعلموه طرق العدل ويحرص على استماع نصحهم ويحذر علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا ، داعماً ذلك بأمثلة من السوابق التاريخية في العصرين الأموي والعباسي .

٣- على السلطان العادل ان يهذب غلمانه وأصحابه ونوابه ، فلا يرضى لهم بالظلم لأنه سوف يسئل على ظلمهم كما يسئل عن نفسه.

٤- ان يمتثل السلطان أخلاق الأنبياء والأولياء . بالعفو والكرم والتجاوز .

٥- ان لا يرضى لأحد من المسلمين ما لا يرضاه لنفسه ، وإلا فقد خان الرعية وغشها .

٦- ان لا ينشغل عن قضاء أرباب الحوائج الواقفين ببابه حتى بنوافل العبادات فأن قضاء حوائج المسلمين ، أفضل من نوافل العبادات .

٧- ان يكون قنوعاً في المأكل والملبس ، فلا عدل بلا قناعة .

٨- الرفق بالرعية لقوله (ﷺ) " كل وال لا يرفق برعيته لا يرفق الله به يوم القيامة " .

٩- ان يلتزم الشرع في التعامل مع الرعية لقوله (ﷺ) " خير أمتي الذين يحبونكم وتحبونهم ، وشر أمتي الذين يبغضونكم وتبغضونهم ويلعنونكم وتعلنونهم " .

١٠- ان لا يطلب رضا احد من الناس بمخالفة الشرع[٥٩] .

ان نظرية الغزالي السياسية ذات طابع ديني خلقي غالب ، إلا ان طابعه السياسي الاجتماعي فيها جلي لا يشوبه غموض ، فالولاية واجب خلقي رفيع على من بيده الأمر ان يضطلع به على أحسن وجه مراعياً المصالح المشروعة العامة ومبادئ الخلق الكريم.

السلطان في نظرية الغزالي هو المحور ومصدر السلطات ، لذلك فهو مسؤول عن نفسه ونوابه وعماله ورعيته ، وهم يسألون في الدار الآخرة عن أنفسهم في حين يسأل هو عن جميعهم .

فالسلطان اصطفاء ، اذ اختار الله سبحانه من بني ادم طائفتين ، وهما الأنبياء ليبينوا للعباد على عبادته بالدليل واختار الملوك لحفظ العباد من اعتداء بعضهم على بعض . فالسلطان بما هو مصطفى ، وهو ظل الله في الأرض وفق ما ذهب اليه الغزالي ،

(٥٨) المصدر نفسه ، ١٤-١٧ .

(٥٩) الغزالي : التبر ، ٢٢-٢٩ .

فهو يحكم وفق نظرية الحق الإلهي ، وهذا يرتب عليه الكثير من المسؤوليات ، فمن أعطاه الله درجة الملوك ، وجعله ظله في الأرض ، ان يعدل بين العباد ، ويحذر من الجور والفساد ، فبعدله تفخر الدنيا وتأمن الرعايا ، والسلطان الظالم شؤم لا يبقى ملكه لخراب الدنيا . فكلما كانت الولاية اعمر كانت الرعية أوفى واشكر لأن " الدين بالملك ، والملك بالجند ، والجند بالمال ، والمال بعمارة البلاد ، وعمارة البلاد بالعدل في العباد " [٦٠] . إذن فلسفته في السياسة متصلة الحلقات تجمع بين الواقعي والمثالي ، والخلقي والديني والسياسي ، تنطلق من الواقع ومن تجارب التراث الإسلامي الداعي لإرساء قواعد الحكم على أساس من العدل . فلا يمكن ان يقوم الملك ويدوم إلا على أساس من الشرع " فالدين والملك توءمان مثل اخوين " فعلى السلطان ان يخلي ولايته من أهل الأهواء ويعز الإسلام ويستديم عمارة الثغور ، ولا يظلم حتى يرفع عنه الظلم[٦١] . وعلى السلطان ان لا يمضي وقته بملذاته وأهوائه ، لأن ذلك يشغله عن أمور الرعية ، فان لكل عمل وقته ، فعليه ان يقسم أوقاته الى أربعة أقسام ، قسم منها لطاعة الله وعبادته ، وقسم للنظر في الرعية ، وأنصاف المظلومين والجلوس بين العلماء والعقلاء ، لتدبير الأمور وسياسة الجمهور وتنفيذ المراسم والأوامر ، وكتابة الكتب وإرسال الرسل ، وقسم للأكل والشرب والتزود من الدنيا " [٦٢] . فضلاً عن إبعاد الأدنياء عن مملكته وعمارة المملكة بتقريب العقلاء ، وحفظ المشايخ وأولي الحكمة ، وعلى السلطان الاهتمام برعيته ويعينهم اذا ما وقعوا في ضيق وفاقة ، لئلا يضعف الناس وينتقلوا الى غير ولايته ويتحولوا الى سوى مملكته[٦٣] . ولا ينبغي للسلطان ان يباشر الأمور بنفسه ، ليحفظ ناموسه من جهة ، ولعظم الأعمال التي تتطلبها المملكة ، فضلاً عن تعلق الأرواح بروحه وصلاح الرعية في حياته . لذا عليه ان يؤكل الأعمال الى الوزراء والعمال ، على ان لا يسلم عمل من أعماله الى من ليس بأهل ، فإن سلم الأعمال الى ذلك الرجل فقد افسد ملكه وظهر له الخلل الوافر من كل وجه ومن كل جانب . لهذا لا يمكن لأحد من الملوك ان يصرف زمانه ويدبر سلطانه بغير وزير فهو يعينه في تحمل أعباء المملكة فضلاً عن انه يشاوره في الأمور " ومن انفرد برأيه زل

(٦٠) الغزالي : التبر ، ٤٢–٤٧ ؛ محمود بن إسماعيل الجذبتي : الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء (الرياض ، مكتبة نزار ، ١٩٩٦) ٢٧ .

(٦١) الغزالي : التبر ، ٤٧–٥٠ .

(٦٢) المصدر نفسه ، ٦٧–٦٨ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ٨٣ –٨٤ .

من غير شك " [٦٤] . وللوزير على السلطان حقوق منها ، اذا ظهرت منه زلة لا يعاجله بالعقوبة ، واذا استغنى في خدمته لا يطمع في ثروته ، واذا سأله حاجة لا يتوقف في قضاء حاجته وينبغي ان لا يمنعه من ثلاثة أشياء :

١- ان يراه متى يشاء .

٢- لا يسمع في حقه كلام مفسد .

٣- لا يكتم عنه شيئاً .

وعلى الوزير عدة واجبات منها ان يبدأ محاربته بالكتب والاحتيال والتدبير بالمال وبذل الصلات ، والعفو عن الجند في حالة انهزامهم ، وفداء الأسرى ، وحفظ أرزاق الجند وتسليحهم بأحسن الآلات ، وان يخاطبهم بأحسن كلام . فالوزير الصالح ، حافظ سر السلطان ومدبر أحوال المملكة وعمارة الولايات والخزائن وزينة المملكة وشدة الهيبة ، وله الكلام على الأعمال واستماع الأجوبة ، وبه يكون سرور الملك وقمع أعدائه ، وهو أحق الناس بالاستماع له وتفخيم القدر وتعظيم الأمر[٦٥] . وبذلك استهدف الغزالي وضع منهج هو بمثابة دستور خلقي سوي وبرنامج عمل للسلطان وعماله وقواته ونوابه وأصحابه، وخطة خلقية وعملية لتحقيق ما أنيط بهؤلاء الحاكمين من ولايات عظيمة القدر والخطر ، مستنبطاً ذلك من قدرته على فهم الشرع وسبر أغواره ، مستعيناً بادلته من عصر النموذج والسوابق التاريخية ، ولم يستطع تجاوز التراث الحضاري للأمم الأخرى لاسيما الفارسية ، فحاول ان يؤام بين الموروث السياسي الفارسي وبين الشرع الإسلامي ، غير متجاهل لضرورات الواقع ومستجداته وظروفه[٦٦] . ويربط الغزالي بين أوضاع الرعية الاجتماعية والثقافية والسلوكية وبين طباع الملوك اذ ان صلاح الناس في حسن سيرة الملوك ، وطباعهم نتيجة طباع الملوك " لأن العامة انما ينتحلون ويركبون الفساد ، وتضييق أعينهم اقتداءً بالكبراء ، فإنما يتعلمون منهم ويلزمون طباعهم " [٦٧] فالناس بملوكهم اشبه منهم بزمانهم ، ولهذا قيل " الناس على دين ملوكهم " [٦٨] ، وكما تكونوا يول عليكم " [٦٩] .

---

(٦٤) المصدر نفسه ، ٨٣-٨٤ .

(٦٥) الغزالي : التبر ، ٨٧ ، ٩١ .

(٦٦) الناهي : الخوالید ، ١٣٢ .

(٦٧) الغزالي : التبر ، ٥٢ .

(٦٨) احمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح الباري ، شرح صحيح البخاري (بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٧٩هـ) ١٥١/٧ ؛ محمد بن علي بن محمد الشوكاني : الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، تحقيق عبد الرحمن يحيى المعلمي (بيروت ن المكتب الإسلامي ، ١٤٠٧هـ) ٢١٠/١ ؛ ويتفق على ان هذا الحديث موضوع . محمد بن خليل بن إبراهيم الطرابلسي: اللؤلؤ المرصوع فيما لا اصل له او بأصله موضوع

و " الملك كالسوق فكل احد يحمل الى السوق ما يعلم انه فيه نافق ، وما يعلم انه كاسد لا يحمله الى ذلك السوق " [٧٠] . ويبدو ان الغزالي لم يكن راضياً عن أخلاق الرعية في زمانه ، اذ يوجه لطباعهم وأخلاقهم انتقاداً لاذعاً ، لكن في الوقت نفسه يحمل مسؤولية هذا السوء ، لسياسة الأمراء والولاة " واما الآن في هذا الزمان فكما يجري على يد أمرائنا والسنة ولاتنا فهو جزاءنا واستحقاقنا ، كما اننا (رديئوا الأعمال قبيحوا الأفعال ذو خيانة وقلة أمانة ... فأمراؤنا ظلمة حائرون ، وغشمة معتدون " [٧١] . وعلى الرغم من ان الغزالي بهذا التشخيص يشير الى السلطان باعتباره المسؤول الأول عما يقترفه ولاته وعماله ، إلا انه يتحاشى المساس بذاته لسبب او آخر ، ويتدارك التلميح وسوء الظن ، فيصف السلطان بأنه خليفة الله ، وانه سلطان العالم ملك الشرق والغرب ، ويعود لتبرير جوره وظلمه حتى تنقاد له الرعية فيقول" وأهل هذا الزمان ذوي وقاحة وسفاهه ، وأهل قسوة وشحناء ، واذا كان السلطان فيهم ضعيفاً ، او كان غير ذي سياسة وهيبة ، فلاشك ان ذلك سبب خراب البلاد ، وان الخلل يعود الى الدين والدنيا " [٧٢] فـ " جور السلطان مائة عام ، ولا جور الرعية بعضهم على بعض سنة واحدة " [٧٣] . ويبدو ان هذا احد الأسباب التي جعلت الغزالي يتحاشى التعرض لمسألة خلع السلطان حتى وان كان جائراً ، ذلك لأنه اصطفاء من الله لحفظ العباد من اعتداء بعضهم على بعض[٧٤] لذلك على الرعية ان تعلم ان من أعطاه الله درجة الملوك ، وجعله ظله في الأرض ، فواجب عليهم محبته ، ويلزمهم متابعته وطاعته ، ولا يجوز لهم معصيته ومنازعته، مستنداً الى قوله تعالى: (**يأيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**) [٧٥] . فعلى الرعية ان تحب

تحقيق فؤاد واحمد زمرلي (بيروت،دار البشائر الإسلامية، ١٤١٥هـ)٢٠٨.

(٦٩) محمد شمس الحق العظيم آبادي : عون المعبود شرح سنن ابي داؤد (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥هـ) ٦٢/٥ . ينظر ، زين الدين عبد الرؤوف المناوي : التيسير بشرح الجامع الصغير (الرياض ، مكتبة الإمام الشافعي ، ١٩٨٨) ٤٣٤/٢ .

(٧٠) الغزالي : التبر ، ٥٣ .

(٧١) المصدر نفسه ، ٥٣ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ٦٥ .

(٧٣) عمر بن علي بن عادل الحنبلي : اللباب في علوم الكتاب ، تحقيق عادل احمد عبد الموجود (بيروت، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨)٥٣٧/٧ ؛ الغزالي : التبر، ٦٥ .

(٧٤) الغزالي : التبر ، ٤٣ .

(٧٥) سورة النساء ، آية ٥٩ .

الملوك والسلاطين وان يطيعوهم فيما يأمرون ذلك لأن الله تعالى يعطي السلطنة والمملكة ، وانه يؤتي ملكه لمن يشاء (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) [٧٦] .

خامساً : الغزالي والإمامة

اشرنا سابقاً الى ان الخلافة العباسية في مستهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، كانت تستشعر خطر وجودها واستمرارها ، بعد ان انتزعت أكثر أقاليمها عنها ، وقامت دويلات وإمارات في مشرق الدولة ومغربها لا تدين بالولاء للخلافة ، فضلاً عن ذلك فقد جردتها السلطنة السلجوقية من امتيازاتها ورسومها ، حتى لم يبق لها من سلطة سوى على بغداد . وعلى الرغم من ذلك فقد استهدفت اتجاهات فكرية وقوى سياسية وتقويض وجودها على رأس الزعامة الروحية للعالم الإسلامي . وجد الخليفة المستظهر بالله ان الخلافة بحاجة الى منظومة فكرية تتولى الرد على مخالفيها من جهة ، وتشرع لوجودها وأحقيتها وصلاحياتها بوجه القوى التي استلبت حقوقها . وكان الغزالي خير من يتولى هذه المهمة اذ كان متحمساً لنصرة الخلافة ومؤمناً بشرعيتها إزاء الاتجاهات الأخرى ، اذ يقول في مقدمة كتابه فضائح الباطنية الذي قدمه للخليفة المستظهر بالله قوله " فأني لم أزل مدة المقام بمدينة السلام متشوقاً الى ان اخدم المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية ، ضاعف الله جلالها ، ومد على طبقات الخلق ضلالها ، بتصنيف كتاب في علم الدين " [٧٧] . إذ سارع الى تلبية رغبة الخلافة في الرد على مناوئيها والدفاع عنها اذ يقول " حتى خرجت الأوامر الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالإشارة الى الخادم في تصنيف كتاب في الرد على الباطنية فرأيت الامتثال حتماً والمسارعة الى الارتسام حزماً ... زعيم الأمة وشرف الدين ومنشؤه ملاذ الأمم أمير المؤمنين ، وموجب طاعته خالق الخلق رب العالمين ، اذ قال الله تعالى: **(يأيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)** [٧٨] . لم يكن اختيار الغزالي هذه المفردات جزافاً ، اذ بإعلان نفسه خادماً ، أصبح احد رجال البلاط الخلافي الذين يتلقون أوامرها الشريفة بالدعوة لها ومهاجمة الفرق المناوئة لها ، فيصدع بالأمر صدوع الخادم فضلاً عن ذلك فأن وسم الخليفة المستظهر بهذه الصفات ، حددت توجهاته ابتداءً ، بمحاولة إرضاء الخليفة وتجسيد رؤاه في نظرته السياسية ، فكانت نظرته مرنة ومطاوعة بعيداً عن التعقيد

(٧٦) سورة آل عمران ، آية ٢٦ ؛ الغزالي : التبر ، ٤٤ .

(٧٧) الغزالي : فضائح الباطنية ، تحقيق عبد الرحمن بدوي (القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤) ٢-٣ .

(٧٨) سورة النساء ، آية ٥٩ ؛ الغزالي : فضائح ، ٤ .

والإغراق الفلسفي . استقى الغزالي من المقدمات والتجارب النظرية والعملية في ذلك العصر لتكوين نظرية جامعة في السياسة ، ابتدأت بالهجوم على الاتجاهات التي خالفها في الرأي ، لينتهي بالدفاع عن شرعية الخلافة العباسية التي يدين لها بالولاء ، من خلال صياغة دستور للخلافة العادلة جامع لكل الخصائص[٧٩] .

واجب الإمامة: الإمامة عند الغزالي من الفقهيات ، وليست من عقائد الدين و " أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها ، وما يتعلق بها ، لا يوجب شيء به تكفيراً " [٨٠] والإمامة واجبة بالشرع وليس بالعقل ، وهذا الوجوب مأخوذ من إجماع الأمة ، فضلاً عن موجبات ذلك " ان نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا ، ونظام الدنيا لا يحصل إلا بإمام مطاع " [٨١] ولهذا قيل " الدين والسلطان توأمان ، والدين اس والسلطان حارس ، وما لاس له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع " [٨٢] ، وبذلك يصبح وجوب نصب الزمام من ضرورات الشرع الذي لا سبيل الى تركه[٨٣] . ذلك ان عدم وجوب إمام معناه ، تعطيل الأحكام الشرعية وإهمالها ، وفساد جميع الولايات ، وبطلان قضاء القضاة ، وضياع حقوق الله تعالى وحدوده ، وإهدار الدماء والفروج ، والحكم ببطلان الانكحة الصادرة من القضاة ، وبقاء حقوق الله تعالى في ذمة الخلق . فجميع ذلك لا يتأتى على وفق الشرع ، إلا اذا صدر استيفاؤها من القضاة ، ومصدر القضاة تولية الإمام ، فأن بطلت الإمامة بطلت التولية[٨٤] . هذا الوجوب المستند على الشرع ، لا ينبغي عقلاً وجوب الإمامة لتحقيق أغراض دنيوية ، هي في الأساس من دواعي انتظام الحياة ، وان كان الغزالي يستبعد العقل ، مناهضاً بذلك لاتجاهات من المعتزلة يقصروها على العقل ما يجعلها محدودة بواجبات دنيوية فقط . وجوب الإمامة شرعاً وعقلاً ، وبدونها الفوضى ، يعني انها موجودة بضرورة شرعية لا سبيل الى

---

(٧٩) الناهي : الخواليد ، ١٢٩–١٣٠ .

(٨٠) الغزالي : الوسيط في المذاهب ، تحقيق علي محي الدين علي (قطر ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، د.ت) ١٩٥/١–١٩٦ ؛ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦٢) ١٩٥ .

(٨١) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣) ١٤٨ .

(٨٢) علي بن ابي علي بن سالم الامدي: غاية المرام في علم الكلام ، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف (القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٣٩١هـ) ٣٦٦.

(٨٣) الغزالي : الاقتصاد ، ١٤٨–١٤٩ .

(٨٤) الغزالي : فضائح ، ١٤٨–١٤٩ .

التخلي عنها ، مقاصدة الإشارة بطرف خفي الى اتجاهات فكرية وقوى سياسية ، بان الخلافة ، والعباسية بالذات هي بإرادة شرعية ، لا سبيل الى إلغائها او استبدالها بأي نظام سياسي آخر ، وعلى الرغم من إدراك الغزالي لمتغيرات عصره وما انتاب الخلافة من وهن وضعف وانحسار سلطتها ونفوذها وحتى مكانتها الاعتبارية ، إلا انه لوّح للقوى السياسية الزمنية التي تمتلك مقومات القوة والنفوذ وبالذات السلاجقة ، باستحالة إلغاء الخلافة وانها المصدر الوحيد لتفويض السلطات الذي بدونه تفقد هذه القوى شرعيتها . وبذلك خالف أستاذه الجويني الذي لمح في كتابه غياث الأمم لنظام الملك بالتصدي لهذا الأمر . فقد كان الغزالي من المؤمنين والمتحمسين للخلافة العباسية ، لهذا يتدارك هذه الأمور ليشير صراحة ان الإمام المستظهر هو الإمام الحق الواجب الطاعة، اذ يقول " ان الإمام المستظهر حرس الله أيامه – هو الإمام الحق الواجب الطاعة " ، اذ لا مترشح للإمامة سواه[٨٥] ، وهذا يعني انه يشكك في شرعية الخلافة الفاطمية اذ ادعى انها لا تمتلك الشوكة لأن أنصارها قلة " واذا كانت الإمامة تقوم بالشوكة ، وانما تقوى الشوكة بالمظاهرة والمناصرة والكثرة في الأتباع والإشباع وتناصر أهل الاتفاق والاجتماع ، فهذا أقوى مسلك من مسالك الترجيح "[٨٦] في حين ان الخلافة العباسية – حسب زعمه – " اجمع عليها أئمة العصر وعلماء الدهر ، بل جماهير الخلق وأقاليم الأرض في أقصى المشرق ، وفي أقصى المغرب "[٨٧] . فوجوب الخلافة حسب استدلالات الغزالي وما يورده من سوابق تاريخية ،" وان الإمام ضرورة الخلق لا غنية لهم عنه " ، انما المقصود هو الخليفة العباسي ليس إماماً آخر .

طرق التولية: يحدد الغزالي ثلاث طرق لتولية الإمام :

١- التنصيص من جهة النبي (ﷺ) .

٢- التنصيص من جهة إمام العصر بأن يعين لولاية العهد شخصاً معيناً من أولاده او من سائر قريش .

٣- التفويض من رجل ذي شوكة يقتضي القيادة وتفويضه متابعة الآخرين ومبادراتهم الى المبايعة ففي بيعته وتفويضه كفاية عن تفويض غيره ، لأن المقصود ان تجتمع شتات الآراء لشخص مطاع . وقد صار الإمام بمبايعة هذا المطاع مطاعاً[٨٨] .

" فالولاية لا تتبع إلا الشوكة ، فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة ، ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل

(٨٥) المصدر نفسه ، ١٧٠ .

(٨٦) المصدر نفسه ، ١٧٣–١٧٤ .

(٨٧) المصدر نفسه ، ١٧٣–١٧٤ .

(٨٨) الغزالي : الاقتصاد ، ١٤٩–١٥٠ .

الخطبة والسكة ، فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام " وبذلك لا يتوجب على السلطان من واجبات تجاه الخليفة سوى ذكر اسمه بالخطبة ، ونقش اسمه على السكة ، وبذلك على الخليفة ان يفوض له صلاحياته الدنيوية[٨٩] .

اما النص من جهة النبي (ﷺ) فيستفيض الغزالي في الرد على كل الاتجاهات التي تقول بالنص في عقد الإمامة ، مستعيناً بقدرته على الاحتجاج والجدل ، والسوابق التاريخية ، لنفي ذلك[٩٠] " فاذا بطل النص تلقي الإمامة من النص لم يبقى إلا الاختيار من أهل الإسلام والاتفاق على التقديم والانقياد " ، ويدافع الغزالي عن رأيه في انه لا سبيل الى تولية الإمام سوى هاتين الطريقتين[٩١] . ويرد على المشككين بالاختيار اذ انه لا يعتبر " فيه إجماع كافة الخلق او إجماع كافة أهل الحل والعقد من جملة الخلق في جميع أقطار الأرض ، او يعتبر إجماع أهل البلد الذي يسكنه الإمام " فالبيعة لا يشترط فيها موافقة جميع الأمة ، كما لم يحدد عدد الذين يبايعون ، ومن اشترط عدداً معيناً لا سند له ، فضلاً عن ان السوابق التاريخية لا تدعم افتراضه[٩٢] . وقد ساير الغزالي جمهور الفقهاء القائلين بالاختيار إلا انه عارض نظرية النص بنظيرة انعقاد الإمامة بالشوكة التي تقوم على بيعة واحد يشترط فيه ان يكون مطاعاً ذا شوكة لا تطال " فالشخص الواحد المتبوع المطاع الموصوف بهذه الصفة ، اذا بايع كفى ، اذ في موافقته موافقة الجماهير " [٩٣] . وقد أدرك الغزالي ظروف عصره ، واستوعب مستجداته وخارطته السياسية ، وانقسام الولاءات بين قوى سياسية مختلفة في اتجاهاتها الفكرية ، في خضمها أصبحت الخلافة العباسية مجردة من مناطق نفوذها فضلاً عن ان الأخطار المحدقة بها والتي تهدد وجودها واستمرارها ، لذلك فقد عوّل الغزالي على بعض القوى التي تمتلك القوة العسكرية والأتباع والإشياع ، وتدين بالولاء للخلافة في مناصرتها ودعمها ، ولو بصورة شكلية ، ولعل ابرز ما يعنيه في هذه المدة هو القوة السلجوقية التي أعلنت منذ نشوءها طاعتها للخلافة ومناهضة مخالفيها ، اذ يكفي دعمها وموالاتها تحقيق طاعة الرأي العام الإسلامي لها . إلا ان الجديد في نظرية الاختيار في نظام الخلافة الذي جاء به الغزالي وخالف به من سبقه ، انما يرده الى الاختيار الإلهي ، اذ اعتبر انعقاد الإمامة لشخص واحد

(٨٩) الغزالي : إحياء علوم الدين (بيروت ، دار المعرفة ، د.ت) ١٤١/٢ .

(٩٠) الغزالي ، إحياء ، ٢٢٣/١ ؛ فضائح ، ١٣٢–١٤١ .

(٩١) الغزالي : فضائح ، ١٧٥–١٧٦ .

(٩٢) المصدر نفسه ، ١٧٤ – ١٧٦ .

(٩٣) المصدر نفسه ، ١٧٦–١٧٧ .

وميل النفوس اليه ومتابعته وطاعته وبهم تقام شوكته ، انما هو رزق الهي يؤتيه الله من يشاء . اذ يقول " فإن الإمامة تنعقد بالشوكة ، والشوكة تقوم بالمبايعة ، والمبايعة لا تحصل إلا بصرف الله تعالى القلوب قهراً الى الطاعة والموالاة ، وهذا لا يقدر عليه البشر " [٩٤] . ويعتبر الغزالي السلطان مصطفى ومختار من الله (سبحانه) وهو ظله (جلت قدرته) في الأرض ، وعليه فمن يوالي المختار فهو بإرادة إلهية[٩٥] اما اذا تصدى للإمامة ، من لا تتوفر فيه شروط القضاء وليس هناك من تتوفر فيه الشروط ، لزمت طاعة الإمام وحكم بإمامته ، ويلجأ الغزالي الى حكم الحال والاضطرار ، من مبدأ (الضرورات تبيح المحظورات) فإمام لا تتوفر فيه شروط القضاء ، ومنها العلم ، والعدل ، ولايته واجبة خيراً من الفوضى وتعطيل المعايش ، فالقول بانعقاد الإمامة مع فوات شروطها لضرورة الحال من باب (أهون الشرين خير) [٩٦] . من هذا الافتراض يذهب الغزالي الى تعزيز أحقية الخلافة العباسية عموماً والخليفة المستظهر بالله خصوصاً ، وبما لا يمكن أي اتجاه مهما بلغت وسائله عن التشكيك بشرعيتها ورد الرأي العام الإسلام عن الموالاة لها[٩٧] .

شروط الإمامة:

ان عملية نصب الإمام ليست عملية عبثية عند الغزالي مدفوعة بالتشهي والاعتبارات المصلحية ، اذ لابد ان تتوفر فيمن يتصدى لهذا المنصب شروط معينة ، فضلاً عن تميزه بخاصية يفارق بها سائر الخلق[٩٨] . وقد اجمع علماء الإسلام على شروط الإمامة وصفات الأئمة وحصروها بالبلوغ والعقل ، اذ لا تكليف على صبي ومجنون ، والحرية ، فلا تنعقد الإمامة لرقيق ، والذكورية ، فلا تنعقد الإمامة لامرأة وان اتصفت بجميع خلال الكمال ، وسلامة حاسة السمع والبصر ، والنسب القرشي ، استناداً لقوله (ﷺ) " الأئمة من قريش " ، وعلى ذلك اجمع السلف على ان الإمامة ، ليست إلا في هذا النسب ، ولذلك لم يتصدى لها من غير قريش على الرغم من تعدد القوى وامتلاكها مستلزمات الغلبة ، ويذهب الغزالي[٩٩] الى ان الفاطميين ادعوا النسب القرشي ، ليتسنى لهم المطالبة بالإمامة ، وهذا ما يميز الإمام عن سائر

(٩٤) الغزالي : الفضائح ، ١٧٥–١٧٦ .

(٩٥) الغزالي : تحصيل السعادة ، ٤٧ .

(٩٦) الغزالي : الاقتصاد ، ١٥١ .

(٩٧) الغزالي : الفضائح ، ١٧٩ .

(٩٨) الغزالي : الاقتصاد ، ١٤٩ .

(٩٩) إحياء ، ١١٥/١ ؛ فضائح ، ١٨٠–١٨١ .

الخلق[١٠٠] .اما الصفات المكتسبة ، فهي النجدة ، وتقترن بظهور الشوكة ، وموفور العدة ، والاستظهار بالجنود ، وعقد الألوية لقمع البغاة والطغاة ، ومجاهدة الكفرة والعتاة . ويبدو ان الغزالي لم يعول على تحقيق ذلك عن طريق القوة العسكرية العباسية ، ذلك لأن السلاجقة جردوا الخلافة العباسية من إمكانية تكوين قوة عسكرية من خلال الكثير من القيود والاشتراطات التي قيدوها بها ، لذلك فالغزالي يقرن الشوكة بالسلاجقة الذين أعلنوا موالاتهم وطاعتهم للخلافة العباسية[١٠١] . ففي بيعتهم وتفويضهم كفاية عن غيرهم ، لأن المقصود ان تجتمع شتات الآراء لشخص مطاع ، وقد صار الإمام بمبايعة هذا المطاع مطاعاً[١٠٢] . اما الكفاية ، فتعني العقل الذي به يميز بين الخير والشر وينصف به الجمهور ، وإدراك عواقب الأمور بطريق الظن والحدس عن طريق الفكر والتدبير والفطنة والذكاء ، فضلاً عن استشارة ذوي البصائر واستطلاع رأي أولي التجارب[١٠٣] .

اما الورع فهو الأساس والأصل وعليه يدور الأمر كله ، وتتمثل بمثابة الدين وصفاء العقل واليقين في جماهير الخلفاء[١٠٤] . اما العلم فقد ذهب البعض من العلماء الى ان الإمامة لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علم الشرع . وليس في ذلك دليل ، لأن الدليل يأتي من نص صاحب الشرع ، ولم يرد من نص في شرط النسب إلا بالنسب وما عداه فإنما اخذ من الضرورة والحاجة الماسة في مقصود الإمامة اليها ، كالعقل والحرية وسلامة الحواس والهداية والنجدة والورع ، وليس رتبة الاجتهاد مما لابد منه في الإمامة ضرورة ، ويكفي ان نعرف حكم الشرع باتباع أفضل أهل زمانه[١٠٥] . واذا ما توفرت هذه الصفات في أكثر من واحد ، فالإمام هو من بايعه أكثر الخلق ، والمخالف له باغ يتوجب قتاله[١٠٦] وبذلك يخالف الغزالي من سبقه في هذا المجال ، وأكدوا في مثل هذه الحالة ، ان الإمامة لمن انعقدت له البيعة أولاً . اما اذا لم يتوفر شرط الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة ، فتنعقد بيعته ، اذا كان في عزله إثارة فتنة ، والمصلحة توجب بيعته[١٠٧] . وأراد الغزالي

(١٠٠) الغزالي : الاقتصاد ، ١٤٩ .

(١٠١) الغزالي : فضائح ، ١٨٢–١٨٣ .

(١٠٢) الغزالي : التبر ، ١٥ .

(١٠٣) الغزالي : فضائح ، ١٨٥ .

(١٠٤) المصدر نفسه ، ١٨٧ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، ١٩١ .

(١٠٦) الغزالي : إحياء ، ١١٥ .

(١٠٧) المصدر نفسه ، ١١٥ .

من خلال استعراضه لهذه الشروط ان يمهد لشرعية الخلافة العباسية عامة وخلافة المستظهر بالله خاصة اذ يقول " ونحن نبين وجود القدر المشروط لصحة الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين ، ثبت الله دولته ، وان إمامته على وفق الشرع ، وانه يجب على كل مقت من علماء الدهر ، ان يفتى بوجوب طاعته على الخلق ، ونفوذ أقضيته بالحق ، وبصحة توليته للولاة ، وتقليده للقضاة ، وصرف حقوق الله ليصرفها الى مصارفها ويوجهها الى مظانها ومواقعها " [١٠٨] .

واجبات الإمام: يقسم الغزالي واجبات الإمام الى علمية وعملية ، ويقدم العلمية لأن العلم أساس كل شيء . فالعلمية ، ان يعرف الإنسان ، لما خلق في هذا العالم ، والى أي مقصد وجه ، ولأي طلب رشح ، فهذه الدار ليست دار مقر ، وانما هي دار ممر ، والناس فيها على صورة مسافرين ، فعلى المسافر ان يتزود بالتقوى ، وذلك بالمواظبة على العبادة والتقوى محلها ومنبعها القلب ، فاذا صلح القلب صلح له سائر البدن[١٠٩] . اذ ان معنى خلافة الله على الخلق ، إصلاح الخلق ، ولن يقدر على إصلاح أهل الدنيا من لا يقدر على إصلاح أهل بلده ، ولن يقدر على إصلاح أهل البلد ، من لا يقدر على إصلاح أهل منزله ، ولا يقدر على إصلاح أهل منزله من لا يقدر على إصلاح نفسه ، ومن لا يقدر على إصلاح نفسه ، فينبغي ان تقع البداية بإصلاح القلب وسياسة النفس ، ومن لم يصلح نفسه وطمع في إصلاح غيره كان مغروراً ، لقوله تعالى: **(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)** [١١٠] .

والإنسان مركّب من صفات ملكية وصفات بيهمية ، وهو حيران بين الاثنين فعليه ان يغلب الصفات الملكية بالعلم والعبادة والعفة والعدالة والصفات المحمودة ، ويتجنب مشابهة للبهائم بالشهوة والغضب والحقد والصفات المذمومة ، اذ ان من غلب عليه العلم والعمل واستولى بهما على هذه الصفات حشر في صورة الملائكة والصديقين والشهداء والصالحين[١١١] . وعلى الإمام التأمل في هذه الصفات حتى تتمثل في القلب ، فتكون نصب العين في كل لحظة ، وتترسخ بالعمل[١١٢] . اما الوظائف العملية ، فهي في حقيقتها تنحوا نحو التمسك بالشريعة وما تدعو اليه من أخلاق فضيلة مستنداً في ذلك على أحكام الشرع والسوابق التاريخية ، فمنها " ان كل من تولى عملاً على المسلمين ان يحكم نفسه في كل

(١٠٨) الغزالي : فضائح ، ١٨١-١٨٣ .

(١٠٩) المصدر نفسه ، ١٩٥ -١٩٧ .

(١١٠) سورة البقرة ، آية ، ٤٤ ؛ الغزالي : فضائح ، ١٩٩ .

(١١١) الغزالي : فضائح ، ٢٠١-٢٠٢ .

(١١٢) المصدر نفسه ، ٢٠٢-٢٠٣ .

قضية يبرمها ، فما لا يرتضيه لنفسه لا يرتضيه لغيره " ، فضلاً عن ذلك على ولي الأمر ان يستعين بالعلماء ويستمع لنصيحتهم ويفاخر بها شاكراً عليها ، وان يهتم الوالي بأمر ذوي الحاجات ، ولا يهمل أمرهم ويتركهم يتجمعون على بابه ، وعلى الوالي ان يعيش التقشف فلا يتلذذ بالمأكولات والملبوسات وعلى الوالي ان يعلم " أن العبادة تيسر للولاة مالا يتيسر لأحاد الرعايا ، فتغتنم الولاية لتعبد الله بها ، وبذلك بالتواضع والعدل والنصح للمسلمين والشفقة عليهم " [١١٣] ، فضلاً عن ذلك ان يكون الوالي إميل الى الرفق في جميع الأمور ويبتعد عن الغلظة ، وان يوصل كل مستحق الى حقه ، وان يكون أهم المقاصد عنده تحصيل مرضاة الخلق ومحبتهم بطريق يوافق الشرع ولا يخالفه ، اذ ان رضا الخلق لا يحسن تحصيله إلا في موافقة الشرع ، وان طاعة الإمام لا تجب على الخلق إلا اذا دعاهم الى موافقة الشرع[١١٤] وعلى الإمام ان يعرف ان خطر الإمامة عظيم ، كما ان فوائدها في الدنيا والآخرة عظيمة ، وانها ان روعيت على وجهها فهي سعادة وان لم تراع على وجهها فهي شقاوة ليس فوقها شقاوة[١١٥] وعلى الإمام ان يكون متعطشاً الى نصيحة علماء الدين ، ومتعظاً بمواعظ الخلفاء الراشدين ، ومتصفحاً في مواعظ مشايخ الدين للأمراء المنقرضين ، وان يتمتع الإمام بصفات العفو والحلم وحسن الخلق وعظم الغيظ مع القدرة[١١٦] . يتضح من هذا ان الغزالي خفّف كثيراً من الواجبات المناطة بالإمام ، والتي درج الفقهاء على تثبيتها ، وأوجبوا عليه القيام بها من ذلك حماية البيضة والذب عن الحريم ، وإقامة الحدود ، وتحصين الثغور ، وجهاد من عاند الإسلام ، وجباية الفيء والصدقات ، وتقدير العطايا ، واستكفاء الأمناء ، وان يباشر بنفسه مشارفة الأمور ، وتصفح الأحوال ، وغيرها[١١٧] . ويبدو جلياً ان الغزالي كان مستشرفاً لواقع عصره ، وما آلت اليه الخلافة من ضعف في ظل تنامي قوى أخرى ، السلجوقية في هذا العصر ، التي جردت الخلافة من كل صلاحياتها وواجباتها من خلال التفويض لهذا لم يوجب الغزالي على الخليفة أية واجبات تستلزم مؤهلات عسكرية او اقتصادية وحتى فكرية ، لإيقانه بأن الخلافة في هذه المدة تفتقد لمستلزمات كل ذلك ، وربما القى بتبعية كل ذلك على القوة المهيمنة على الخلافة ، وبذلك شرع الغزالي لإمامة

(١١٣) المصدر نفسه ، ٢٠٢–٢٠٧ .

(١١٤) المصدر نفسه ، ٢٠٥– ٢٠٦ .

(١١٥) المصدر نفسه ، ٢٠٨ .

(١١٦) المصدر نفسه ، ٢١٢ ، ٢٢٠ .

(١١٧) ابو الحسن علي بن محمد الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية (بغداد ، دار الحرية ، ١٩٨٩) ٣٠–٣١ .

روحية معنوية ، وجودها واستمرارها والولاء لها ، مستقاة من الشرع والسوابق التاريخية ، فالتزم الغزالي بالمنطلقات التي أرساها لنظريته السياسية والتي تمحورت في الدفاع عن الخلافة العباسية بشكل عام ، إزاء كثير الاتجاهات التي خالفتها ، والقوى التي استلبت إرادتها والأنظمة الخلافية التي شككت بشرعية وجودها واستمرارها وعملت على تقويضها ، ومن جهة أخرى استهدف الدفاع عن مشروعية إمامة المستظهر بالله والرد على المشككين بصلاحيته للخلافة لكل ذلك لم يثقلها بواجبات يدرك تماماً عدم قدرتها على القيام بها . ولهذه الأسباب وغيرها لم يتطرق الغزالي بجدية الى مسألة خلع الخليفة جائراً كان او فاسقاً او فاقداً لشروطها ، وقد التزم بمقدماته التي ذهب فيها الى ان وجود الإمامة بإرادة إلهية ، وان وجود الإمام هو اصطفاء واختيار من الله ، لذلك ليس للأمة دور في عزله ، فمن يختار بإرادة إلهية لابد ان يعزل بذات الإرادة " ان الملك والإمام هو بماهية ملك وإمام ، سواء وجد من يقبل منه ، أم لم يوجد ، أطيع او لم يطع ، وجد قوماً يعاونوه على غرضه ، او لم يجد " [١١٨] . فضلاً عن ذلك فقد كان الغزالي مدركاً ان واقعة يموج بكثير الحركات والاتجاهات التي ترنوا الى منصب الإمامة ، وان أي تشريع لخلع الخليفة غير مأمون العاقبة وسيجر الى فتنة عشواء لا تعرف مغبتها ، لذا قدم النظام والأمن على الشرعية ، بمقدار الضرورة إيثاراً لسلامة الأرواح وحقناً للدماء وتوفيراً للمصالح ، فاذا كان استبدال الخليفة او عزله يؤدي الى فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له ، كما تجب طاعة الأمراء ، واستند الغزالي الى أحاديث الأمر بطاعة الأمراء[١١٩] ومن هنا فان الخلافة منعقدة لبني العباس ، وان الولاية نافذة للسلاطين في أقطار البلاد طالما مبايعين للخليفة.

(١١٨) الغزالي : تحصيل السعادة ، ٤٧-٤٨ .

(١١٩) الغزالي : إحياء ، ١٤٠-١٤١ .